السادات - خسارة رهان واستسلام

دكتور سليمان بشير

عقب الاعلان عن مشروع السادات وعن الموافقة على عقد مؤتمر لندن الثلاثي بدأ التحرك الساداتي في الاسبوع الماضي يسير على ثلاثة اصعدة اساسية. ومع ان هذا التحرك سار على اساس مراهنة السادات التي اتسمت "بالفهلوه والكياسه" على ادخال عناصر جديده على طريق التراجعات والتنازلات، فان الخسارة التي مني بها في جميع تلك الحالات تشير بوضوح الى محور الاستسلام الواضح الذي يجمع بين تلك الاصعدة الثلاثة.

الغربال الامريكي

لم يعد سرا اليوم ان السادات قد خسر رهانه على حصان "الضغط الامريكي على اسرائيل" ذلك الحصان الذي كلفت تربيته وتدريبه الشعب المصري خسارة جميع منجزاته الوطنية والديموقراطية خلال اكثر من عشرين سنه. فجميع المصادر تشير بوضوح الى "ان السادات قد وافق على حضور مؤتمر لندن بعد تردد وضغط امريكي كبيرين عليه" (بعاريف ٧٨.٧.١٠) وذلك اثناء زيارة موندیل للاسكندرية. والسادات لم ينكر عملية ذلك الرهان. فقد صرح في اكثر من مناسبة على ان موافقته على عقد المؤتمر جاءت كخطوة من رحابة الصدر وطيب النيه تجاه امريكا، وذلك في معرض حديثه "لواشنطن بوست" من الاسبوع الماضي.

غير ان السادات كان قد ارتق تلك الخطوة برهان اخر سارعت وسائل الاعلام المصريه الى نشره، وهو انه في حالة فشل مؤتمر لندن فان امريكا ستقدم بمشروع من عندها تماما كما فعل كيسنجر اثناء تعثر مفاوضات فك الاشتباك سنة ١٩٧٥.

اما الرد الامريكي على ذلك الرهان فقد كان واضحا للسادات. وبعد الحقنة التي اعطاه اياها كارتر عندما صرح بأنه في حالة فشل المفاوضات المباشرة فان امريكا ستنظر مجددا في امكانية الدعوة لعقد مؤتمر جنيف سارعت اوساط الادارة الامريكية الى انكار ذلك. فموندیل يصرح عند زيارته لقبر دافيد بن غوريون في سديه بوكير بأنه يعتقد ان تصريح كارتر لم يفهم حقيقته. اما كارتر فقد قام بدوره بتنفيس حقنة الرهان الوهمية عندما وعد بالامتناع عن الادلاء بأية تصريحات بالنسبة للشرق الاوسط وذلك في اعقاب ما نقله اليه نائبه عن لهجة احتجاج اسرائيلي على تصريحه المذكور (يديعوت ٧٨.٧.١٠).

ومنذ ذلك الحين بدأت تتوالى التصريحات الامريكية النافية لامكانية حدوث مثل ذلك الضغط (شبكة التلفزيون الامريكي سي. بي. اس. تنقل (يوم الجمعة ٧٨.٧.١٤) على لسان دوائر وزارة الخارجية الامريكية قولها بأن "امريكا لن تتقدم بمقترحات من عندها في مؤتمر لندن بل ستقدم وثيقة تتضمن تأكيدا على نقاط الاتفاق بين مصر واسرائيل.

سنتطرق الى هذه النقاط فيما بعد. اما بيرس حصان الرهان الوهمي الثاني للسادات فقد قال في المؤتمر الصحفي الذي عقده عقب اجتماعه بالسادات: "لا اعتقد بان هنالك ضغطا امريكيا جديا على اسرائيل وان امريكا تسعى فقط للابقاء على قوة الدفع في المفاوضات. وان نائب الرئيس موندیل قد وعد اثناء زيارته لاسرائيل بأن امريكا لن تفرض حلا من عندها".

اما دور "الابقاء على قوة الدفع" فقد حدده وزير الخارجية الامريكي بشكل اوضح عندما اعلن في المؤتمر الصحفي الذي عقده يوم ٧٨.٧.١١ في واشنطن بأنه: "من الممكن التغلب على الخلافات في الرأي بين اسرائيل ومصر في مؤتمر لندن". واضاف: "هنالك عدة نقاط تتفق فيها اسرائيل ومصر". فالدور الامريكي في لندن ينحصر اذن في نظر فانس في غربلة المواقف وهو ما اكدت عليه سي. بي. اس. كما قلنا.

اما المواقف المتفق عليها بين مصر واسرائيل والتي اشار اليها فانس دون تفصيل فان سي. بي. اس تذكر منها: "الموافقة على كون قراري مجلس الامن ٢٤٢، و ٣٣٨ هما اساس المفاوضات، وان القوات الاسرائيلية يمكن ان تحتفظ لها بمواقع في الضفة الغربية وقطاع غزة وانه لا يتوجب على الانسحاب الاسرائيلي ان يكون شاملا وانه ستكون هنالك فترة انتقالية فيما يتعلق بالضفة الغربية وقطاع غزة".

حصان للمعارضة المعراخية يرفس

سنتطرق فيما بعد الى المزيد من نقاط التقارب الاسرائيلي المصري على مستوى المضمون. اما فيما يتعلق بالشكل فمن الواضح ان السادات الذي بدأ يشعر بعدم جدوى ضغط الغربال الامريكي بدأ يبحث عن حصان لغر للرهان وذلك على شكل لقائه مع زعيم المعارضة المعراخية بيرس الذي قال بأنه يتكلم واياه "نفس اللغة" غير ان احداث الاسبوع الماضي اثبتت بوضوح فشل الفهلوة والكياسة الساداتية وان عملية الرهان على حصان المعراخ لم تفشل فقط بل انقلبت على السادات برأسه. فبيرس يعلن وبعد اجتماعه بالسادات يوم ٧٨.٧.١٠ بأنه "في اسرائيل لا توجد معارضة للسلام" وبأنه" لا فرق بين المعارضة والائتلاف في التطلع الى السلام في اسرائيل" وفي مناسبة اخرى عاد بيرس وحصر الدور الذي يلعبه في "تقريب وجهات النظر" فقط اي تماما كما فعلت امريكا. ويوم الاربعاء ٧.١٢ نشرت الاهرام قوله بأنه "يأمل في ان تقوم مصر واسرائيل بمجهود للتقريب بين موقفيهما في لندن.

ومن قيام بيرس بتمييع الموقف المصري (الذي يسميه "تقريب") تنتقل بديعوت احرونوت يوم السبت ١٩٧٨.٧.١٠ الى الاثارة بأن بيرس اكد للسادات على انه "ما من حكومة اسرائيلية ستوافق على الانسحاب حتى حدود ١٩٦٧ او على التخلي عن القدس او على اقامة دولة فلسطينية بينها وبين الاردن".

وهذه الصدمة التي تلقاها السادات مضمونا انقلبت عليه شكلا على ما يبدو. والصحفي الاسرائيلي ايلان كفير يقول: "خلال محادثات السادات - بيرس تم بحث هذا الموضوع (علاقة السادات بيجين) وذلك على خلفية الازمة العامه (في المحادثات). لقد امتنع بيرس عن الدخول في ثرثرة سياسية مع السادات. وعلى العكس من ذلك فقد نصح الرئيس المصري باستمرار الحوار مع الحكومة الاسرائيلية وقال له: "نستطيع ان ننقذ المفاوضات فقط بالمحادثات المباشره" اما السادات الذي فوجيء من غياب اي انتقاد علني لبيرس ضد منازعيه السياسيين (الليكود) فقد امتنع بدوره عن استعمال تعابير شديدة اللهجة ضد بيجين".

اما ارئيل جيناي فقد علق على اجتماع بيرس - السادات بقوله: "هذا الاجتماع اقنع السادات بأنه حتى "المعتدلين" في اسرائيل غير مستعدين لقبول برنامجه وان عليه ان يتحدث مباشرة الى الحكومة الاسرائيلية".

يمين "الاشتراكية" يضغط على السادات

وطالما نحن بصدد عرض نتائج الرهان الساداتي على حصان المعارضة المعراخية لا بد من الاشارة الى الدور الذي لعبه ابا ايبان احد مدعوي السادات لزيارة الاسكندرية. لان موضوع ايبان يرتبط بشكل مباشر بخسارة السادات رهانه على حصان يمين "الاشتراكية الاوروبية". وهذا يتضح بدوره من تصريح ايبان يوم الاربعاء ٧.١٢ بأن ورقة العمل التي صاغها ساهمت في صدور "وثيقة فينا" التي اصدرها برانت وكرايسكي. يقول ايبان: "لقد طلب بيرس مني ان اقوم بصياغة ورقة عمل تشكل القاسم المشترك لموقف الاشتراكية الدولية بهدف توضيح موقفها السياسي بخصوص ازمة الشرق الاوسط وقد قمت بالفعل بصياغة بعض المبادىء معتمدا في ذلك على صيغة بيان اسوان. وعندما حمل بيرس تلك الورقة معه الى فينا اتضح بأنها اثرت بشكل جذري على وثيقة برانت وكرايسكي".

لموقف المعراخ الذي راهن السادات على مقدرته على اضعاف بيجين انقلب عليه اذن على شكل وثيقة يتبناها يمين الاشتراكية الدوليه الامر الذي ساعد على فك العزلة عن اسرائيل من ناحية وعلى شكل تأكيد زعيم المعراخ بأنه لن يقبل ببرنامجه وان عليه ان يتفاوض مع الحكومة الاسرائيلية من الناحية الاخرى.

ثم ان لمحة عابره على تلك "الوثيقة" تكفي للدلالة ليس فقط على خسارة السادات لرهانة على حصان "الاشتراكية" الاوروبية بل على اضطراره للتراجع حتى عن "مشروعه" هو. فالبند الثالث لهذه الوثيقة يؤكد على ان "العامل الهام في السلام هو الاتفاق على الحدود الامنة حسب ما يتفق عليها" وان "موقع هذه الحدود يحدد نهائيا خلال مفاوضات السلام" وهذا الموقف يشكل تراجعا عن المواقف التي تبنتها بعض عناصر الاشتراكية الدوليه التي نادت في السابق بالاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم ويثبت بوضوح بأن من يتخلى عن قضيته لا يحق له مطالبة الغير بالتمسك بها.

وايزمان "صديق" السادات

وخسارة كل هذه الرهانات اقنعت السادات على ما يبدو بضرورة الاجتماع بوايزمان وذلك بعد ان كان قد صرح بأنه لن يعود الى المفاوضات المباشرة دون ان تدخل عناصر جديده على الموقف الاسرائيلي. اما المراقبون السياسيون ووكالات الانباء فقد اشاروا الى ان طلب الاجتماع الى وايزمان جاء "بهدف اعداد انبوب اخر للاتصال في حالة فشل مؤتمر لندن". وحول دور وايزمان اثناء ذلك الاجتماع فان الصحافة الاسرائيلية تنسب اليه قوله: "سيدي الرئيس، للحكومة الاسرائيلية رئيس واحد هو مناحم بيغن، وهو الذي سيوقع اتفاقية سلام. ومع احترامي لك يا سيدي الرئيس فانت لا تستطيع ان تحدد مع من تتم المفاوضات."

هذه اذن نتيجة الاجتماع بوايزمان الذي قال السادات بأنه كبيرس "يتكلم لغة مشتركة معه". اما المأساة الهزليه الحقيقية فتكمن في تصريح السادات عقب عودته من الدمسا بأن "الرحله حققت اكثر من نجاح وستكون لها نتائج محدده قريبا" وفي تصريحه للاهرام يوم ٧.١٦ بأنه "لا مساومه على الاراضي والسياده وحقوق الفلسطينيين".

غير ان المتتبع لما جرى خلال الاسبوع الماضي يستطيع التوصل الى نتيجه ان السادات لم يفسر رهانه فقط بل ان رهانا من هذا النوع هو عين الاستسلام. فمصر التي لم يبق لها السادات سوى واحد بالمئة من أوراق الحل (بعد ان اعطى ٩٩ بالمئة منها لامريكا) خسرت خلال الاسبوع الماضي حتى البرنامج المصري. والسادات يصرح لجيروزلم بوست يوم ٧.١٦ بانه مستعد لقبول وثيقة برانت - كرايسكي كاعلان للمبادىء. اما نائب وزير الخارجية المصري اسامه الباز فانه يقترح بأن توضع "الترتيبات الامنيه في الضفة والقطاع" على راس جدول اعمال مؤتمر لندن في حين توضع مسألة الانسحاب الاسرائيلي من المناطق المحتلة في ذيل ذلك الجدول. وذلك الاقتراح جاء ضمن المحادثات التي اجراها "الباز" مع موظفي وزارة الخارجية الامريكية الذين يرون بأن "المواقف المصريه والاسرائيليه بخصوص هذه الترتيبات متقاربة جدا اذا ما فصلت عن قضية الانسحاب الاسرائيلي".

كل ذلك يفسر ايضا مصدر "تفاؤل" ديان في المؤتمر الصحفي الذي عقده عقب مغادرة وايزمان الى سالسبورغ عندما قال بأن :"هنالك نقاط تقارب بين المشروعين المصري والاسرائيلي بالنسبة للضفة والقطاع وانه انطلاقا من هذه النقاط يمكن احراز بعض التقدم". وهو ما يفسر ايضا كيف ان السادات بدأ يعود عمليا الى مفاوضات الاستسلام المباشره على شكل مؤتمر لندن الذي لا يتوقع له ان يكون اكثر من مجرد غربلة مواقف سيكون لها ما بعدها في العريش او بئر السبع (حيث يتوقع استئناف اعمال المؤتمر) او ربما في الاسكندرية (حيث الدعوه لزيارة وايزمان).

الوضع الاقتصادي في اسرائيل

قامت الحكومة الاسرائيلية في جلستها الاسبوعية يوم الاحد الماضي بمناقشة الميزانية التي تطالب وزارة الماليه بمناقشتها على الميزانية المقترحة للسنة الماليه الجديده. ويأتي هذا النقاش وسط دلائل تشير الى ان الاقتصاد الاسرائيلي يقف على ابواب ازمة جديدة من التضخم والعجز المتزايد من ناحية والغلاء والمطالبة بالعلاوات من الناحية الاخرى.

ومن هذه الدلائل تجدر الاشارة الى ان سلم الغلاء قد ارتفع في الشهر الماضي فقط ٢ بالمئة بحيث بلغ بداية السنة الحاليه ما يزيد على ١٨ بالمئة.

والغلاء الذي سيلد ي بالضرورة الى موجه جديدة من [illegible]

لذلك فمن المتوقع ان تقوم الحكومة قريبا بالتوجه الى الكنيست بطلب المصادقة على ميزانية اضافية بمقدار ٢٥ مليارد ليره بحيث تبلغ الميزانية الاجمالية المقترحة للسنة الماليه الجديده اكثر من ٣٠٠ مليارد ليره.

وفي حين يعتقد المراقبون في دوائر الجباية ان مداخل الضرائب السنويه على اختلاف انواعها سوف لن تزيد على ١٠٠ مليارد (اي انها ستغطي ٥٠ بالمئة فقط من الميزانية المقترحة) فان العجز الباقي سيغطي كما هو عادة في الانظمة الراسمالية عن طريق رفع الضرائب وضرائب القيمة الاضافية (المتوقع ارتفاعها من ١٢ بالمئة الى ١٥ بالمئة) من ناحية وطباعة الكميات الهائلة من الاوراق النقدية الجديدة (اكثر من مليارد ليره شهريا).

هنا يدخل الاقتصاد الاسرائيلي الى حلقة مفرغة. وكان وزير الماليه اتى ليكحلها فعماها. لان طباعة الاوراق الجديده تقلل من القيمة الشرائية ومن قيمة الصرف الفعليه لليره الاسرائيليه الامر الذي يؤدي الى غلاء الاسعار بالضروره. وفي [illegible] هذا الغلاء سيراد "مستوى المعيشه المرتفع" فان ما يسميه اقتصاديو وزارة ايرلخ امتصاص الفوائض النقديه التي هي التضخم.

والوجه الاخر لعلمية "الامتصاص" بهذا الشكل ان تقوم الحكومة بتقليص ميزانية دعم الحاجيات الضروريه (السوبسيديا) الامر الذي يؤدي بدوره الى زيادة الغلاء حتما. لذلك فمن المتوقع ان تصل الزياده في الغلاء بنسبة ٤٠ الى ٥٠ بالمئة كما يتوقع ان تهبط قيمة صرف الليره الاسرائيلية الى معدل ١٩ ليره للدولار سنويا.

وفي نفس الوقت تقوم مجموعات عماليه ونقابات اخرى بالمطالبه بعلاوات تزيد على نسبة ١٥ بالمئة المتفق عليها بين الحكومة والهستدروت وكانت نقابة المدرسين قد حذرت يوم الجمعة الماضي من ان الاضراب العام سيشمل جميع المؤسسات التربوية في اسرائيل اذا لم يتم التوصل الى اتفاق جديد بشأن الاجور حتى نهاية الشهر الحالي ويطالب المدرسون بزيادة ٥٠ بالمئة على اجورهم الحاليه.

اما عمال مصانع البحر الميت فقد عقدوا اجتماعا طارئا يوم الاحد الماضي طالبوا فيه الادارة بعلاوة تناسب الارتفاع في